المحاضرة الرابعة

وطن الجاحظ[1]

—«»—

لئن أنبتت (خد العذراء) أباالطيب المتنبيء جبار الشعر على ترادف الايام فأي بقعة من بقاع الارض أنبتت اباعثمان الجاحظ جبار النثر في قديم الدهر وحديثه .

يقول كاتب من بلغاء الكتاب الفرنسيين في الشاعر (دي فيني) : لا يقرأ احد شعره ولكن الناس كلهم يعرفون اسمه ، فما ألصق هذا القول بالجاحظ نفسه ، كلنا نعرف اسمه ولكن هل نقرأ كلنا كتبه ، هل نعرف حياته على الوجه الذي نريده في عصرنا هذا .

ولئن فاتنا مانريد من هذه المعرفة فلنعمل في استقصاء في ما لم يفت .

كنت أقرأ وانا أهيء هذا الكلام كتاباً يبحث عن (فرجيل Virgile [2]) شاعر ايطالية ولد هذا الشاعر سنة ٧٠ قبل السيد المسيح فلم يغفل الكلام على القرية التي ولد فيها ، لم يغفل الكلام على محاقلها وعلى طيرها وعلى سواقيها وعلى ينابيع مائها وعلى مراعيها وعلى تعاشيبها وقد اوصى الشاعر الرعيان برعي ماشيتهم في منابت عشبها .

وللامم الغربية مذاهب بعيدة في الحنين الى الاوطان ، وقد انتخب البرت سيم طوائف من الكلم استنبطها من آثار كتاب الغرب وشعرائه واثبتها في مقال عنوانه : المولد وقع

---

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الادب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

(٢) فيرجيل بقلم اندره بليسور (André Bellessot) الصفحة ٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عليه نظري في « المجلة العالمية La revue mondiale » وقد استخرجت من هذا المقال شيئاً من الكلام اذكره على سبيل الايجاز :

لما نفي اوفيد الشاعر اللاتيني الى شواطئ البحر الاسود خرج من دياره وهو يلتفت الى رومة وبوادي وطنه سولمون ويقول : لاادري اي رونق لهذا الوطن حتى ملك علينا حواسنا فلا نجد سبيلاً الى نسيانه على وجه الدهر .

وكذلك فيرجيل شاعر اللاتينيين ، فانه لم ينس مولده البائس مدينة مانطو كل حياته ، ولا ذهل هوراس عن بقعة ارضه الباسمة .

قال فنلون في قصيدة له : مهما ضربتُ في مناكب الارض ، فان البقعة التي رزقت فيها الحياة تلذ الاقامة بها وتضحك لي جواؤها اكثر من كل بقعة .

وذكر روسو ايامه التي قضاها في قرية بواسي على مقربة من جنيف فقال : وما فتئت منذ طوبت شرخ الشباب ووخطني الشيب اشعر بان ذكرى بواسي تتوقد في خاطري على حين انسى صور غيرها من الذكر وتستقر في حافظتي استقراراً يشتد على تراخي الحقب ، فكنت كمن احس بدنو اجله فطلب السبيل الى الحياة بتذكر اوائلها واصغر حوادث تلك الايام يحلو في عيني لانه من تلك الايام .

وانك لتجد العواطف نفسها في كلام لبرناردن دي سان پيير قال : اني افضل باديتي على سائر البوادي ، ولا اؤثرها لجمالها ولكنني ربيت ونشأت في آفاقها . . ما اسعد الذي يعود الى الديار التي جعل كل شيء فيها محبوباً .

ولما عاد الجنرال دي برسول من وقعة روسية وهو مثخن بالجراح رأى مولده فصرخ : انا من اوفيلار ! قريتي قبل كل شيء . .

قال لامارتين وقد ذكر وادي ما كونه وهو يحبه حباً جماً : هذا مسكني منذ الصبا ! سلام على ربيعه وصيفه وخريفه وشتائه ، واهاً لي ! تستحثني تصاريف الدهر في كل خطوة خطوها فلم اعد الى هذه الديار الا لانزه فيها ساعات قلائل فاقيس الشجرات التي غرستها لادفن في ظلالها واصلي في جوار قبرين يسيراً من الزمن . .

وكتابات اسكندر دوماتنم عن نزاعه الى تربته وتشتمل على وصف جميل لكل مايحس به في عودته الى فيللر كوتره قال في جملة كلام له : دع هذا المولد الذي انشأ في اعماق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قلبي ذكراً ثابتة يجتذبني اليه فكلما دنوت من الموت يشتد هذا الاجتذاب فكأن الطبيعة قد جعلت الانسان يفرح بالبحث عن لحده في ظلال مهده .

وقال في مقام آخر : صرفت ثلاثين سنة من عمري في العمل والنزاع حتى سلبني الدهر رونق ايامي وشرخ شبابي ومع هذا فاني انبسط الى هذه القربة الصغيرة التي لا يعرفها احد في العالم وقبل وصولي اليها انزل من العربة فاحصي الشجر واجلس الى بعضه فاغمض عيني واتذكر اموراً مضى عليها عشرون سنة وفي جملة هذا الشجر شجرات نزلت مني بمنزلة الاصدقاء القدماء وفي جملتها شجرات غرسها غيري فأمر بها ولا ابالي كما امر برجال لا اعرفهم ولا يهمني معرفتهم .

وقال كراسزوسكي البولوني مخاطباً مولده :

ايتها الارض الجميلة التي تحتفظين بذكرانا بعد انقضاء الاجل !

ايتها الارض العذبة التي حنوت علينا في قديم الدهر !

اننا نودع خلطاءنا ونحن نأمل لقاءهم في السماء ، ولكننا اذا ودعناك لا نرى ابداً بعدك ضياعك المحبوبة ، وديارك وجداولك ، وربيعك وصيفك ، وخريفك وشتاءك وسائر ما رسخت صوره في اذهاننا في عنفوان الشباب .

كيف تكون عنادلك ، وازاهرك وغدواتك وروحاتك ؟

اترحب بنا السماء حتى ننسى من اجلها كل شيء قديم ؟

ومثل هذا الكلام كثير في آثار الافرنجة اجتزيء بالقدر اليسير منه تفادياً من التطويل .

قرأت هذا كله فقلت في نفسي : ما الذي نعرفه من وطن الجاحظ ما الذي نعرفه من الجاحظ نفسه وهو أذهب أدبائنا شهرةً وأبعدهم صيتاً ، هل يتيسر لنا ان نبعث هيأته من مرقده حتى نحيط باسرار عبقريته بحذافيرها .

مالنا وهذا اليأس فان الفرح بمحادثة رجل مثل الجاحظ بعد ان اتى عليه احد عشر قرناً وهو هادىء في ترابه مطمئن في قراره يكاد ينسينا الالم الذي نألمه في فوات ما فات من جميع امره .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في سنة اربع عشرة كتب عتبة بن غزوان كتاباً الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب وقال : لابد للمسلمين من منزل اذا اشتاشتوا فيه واذا رجعوا من غزوهم لجؤا اليه فكتب اليه عمر ان ارتد لهم منزلاً قريباً من المراعي والماء واكتب اليّ بصفته فكتب الى عمر : اني قد وجدت ارضاً كثيرة القَضّة في طرف البر الى الريف ودونها مناقع فيها ماء وفيها قصباء . ولما وصلت الرسالة الى عمر قال : هذه ارض بصرة قريبة من المشارب والمراعي والمحتطب فكتب اليه ان انزلها فنزلها وبنى مسجدها من قصب وبنى دار امارتها دون المسجد في الرحبة التي يقال لها : رحبة بني هاشم ، وكانت تسمى الدهناء وفيها السجن والديوان وحمّام الامراء فكانوا اذا غزوا نزعوا ذلك القصب ثم حزموه ووضعوه حتى يعودوا من الغزو فيعيدوا بناءها كما كان .

ففي هذه الارض التي مصّرت على زمن عمر بن الخطاب ولد الجاحظ وقدسموها : البصرة ، واذا قالوا : البصرتان عنوا بقولهم الكوفة والبصرة ، ومن فرط اهتمامنا بالجاحظ لزمنا ان نعرف كل شيءٍ يختص به حتى معنى الارض التي شرب من مائها واكل من طعامها ونشق من نسيمها واستظل بظلها فانبلج من أفقها نوره ودرج من أفيائها شعوره فكان لنا معاشر العرب من هذه العبقرية الوهاجة مفخرة نفخر بها على تراخي الاحقاب .

ولقد اهتم الافرنجة بمعاني بقاعهم الاهتمام كله ولم يكن اهتمامهم بمثل هذه الامور على سبيل اللهو او على سبيل العبث وانما رموا في هذه المذاهب مرامي أبعد فان لفهم اشباه هذه المعاني عملاً جليلاً في حمل القلوب على الارتباط باوطانها ، وآخر ماقرأته في هذا الباب مقال عنوانه : سواقي فرنسة [1] ، فليت ان في ادبنا أمثال هذه المقالات التي تنشيء في النفوس محبة الاوطان فبعد ان وصف الكاتب الساقية على وجه عام وأتى على ذكر ماتضمنته من اغاريد وابتسامات وتكلم على رفيف الضحى وعلى عبوس الليل في احفتها ، بعد ان تبسط في هذا الوصف على اساليب شعرية رجع به القول الى الكلام على الساقية

(١) كتاب النزه الأدبية لصاحبه (Remy de gourmont) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فنفخ فيهـا روحاً واخذ يفسر الاسماء التي أطلقوها على سواقي فرنسة وقد جاءتهـا هذه الاسماء من الامم التي نزلت بفرنسة في القديم من السنين ثم ختم مقاله بهذا الكلام :

هذا آخر عهدي بمئات سواقينا فليتني لم أقطع الكلام عليها فاني أجد الماً في قطع هذا الكلام لان الساقية ام الطبيعة .

* * *

فلنبحث عن معاني البصرة لعل معرفة هذه المعاني تزيد في مقدار اتصالنا بالوطن الذي أخرج للناس أمثال الجاحظ .

البصرة ومعناها في كلام العرب على ماقال ابن الانباري الارض الغليظة .

وقال قطرب : البصرة الارض الغليظة التي فيها حجارة تقلع وتقطع حوافر الدواب .

وقال غير قطرب : البصرة حجارة رخوة فيها بياض .

وقال ابن الاعرابي : البصرة حجارة صلاب قال : وانما سميت البصرة لغلظها وشدتها كما تقول : ثوب ذو بصر وسقاء ذو بصر اذا كان شديداً جيداً .

وذكر الشرقي بن القطامي : ان المسلمين حين وافوا مكان البصرة للنزول بها نظروا اليها من بعيد وابصروا الحصا عليهـا فقالوا : ان هذه ارض بصرة يعنون : حصبة ، فسميت بذلك .

وذكر احمد بن محمد الهمداني حكاية عن محمـد بن شرحبيل بن حسنة انه قال : انما سميت البصرة لان فيها حجارة سوداء صلبة وهي البصرة .

وقال حمزة بن الحسن الاصبهاني سمعت موبذ بن اسوهشت يقول : البصرة تعريب بس راه لانها كانت ذات طرق كثيرة انشعبت منها الى اماكن مختلفة .

وفي اللغة اسباب لتسميتها غير هذه فالمجمع عليه ان في البصرة معنى الشدة والصلابة فكأنما اوحت الى ابي عثمان صلابة القول وشدة اسره .

فما الذي تركه الجاحظ لنا من آثار هذه الشـدة ورسوم هذه الصلابة ما الذي تركه لنا من آثار وطنه وهو الذي يقول في الحنين الى الوطن : « وانت لوحوّلت ساكني الآجام الى الفيافي وساكني السهل الى الجبال وساكني الجبال الى البحار وساكني الوبر الى المدر لأذاب قلوبهم الهمّ ولأتى عليهم فرط النزاع . وقد قيل : عمر الله البلدان يحب الاوطان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال عبد الله بن الزبير رحمه الله تعالى : ليس الناس بشيء من اقسامهم افنع منهم باوطانهم . وقال معاوية في قوم من اليمن رجعوا الى بلادهم بعد ان انزلهم من الشام منزلاً خصيباً وفرض لهم في شؤون العطاء : يصلون اوطانهم بقطيعة انفسهم ، وقال الله عز وجل : ولو انا كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم او اخرجوا من دياركم مافعلوه الا قليلاً منهم . فقرن الضن بالاوطان الى الضن بمهج النفوس » .

فان الذي يقول مثل هذا القول و يشعر مثل هذا الشعور انما هو عالم بمنزلة الوطن من القلوب فلننظر في مقدار حنين الجاحظ الى وطنه ماهي الآثار التي خلّفها لنا من هذا الحنين ، ماهي طبيعة هذه الآثار .

نظر الجاحظ الى عيوب تربته ولم ينظر الى فضائلها فقال :

« من عيوب البصرة اختلاف هوائها في يوم واحد لانهم يلبسون القمص مرة والمبطنات مرة لاختلاف جواهر الساعات ولذلك سميت الرعناء فقال الفرزدق :

لولا ابو مالك المرجو نائلـه ماكانت البصرة الرعناء لي وطنا »

فلم ينظر الجاحظ الى تربته نظرة شاعر مولع بالوان هذه التربة كلف بمشاهد طبيعتها وانما نظر اليها نظرة العالم الذي يريد ان يبحث عن اصل كل شيء حتى يعرف المورد والمصدر والمدخل والمخرج وهذا من خصائص عبقريته ومن طبيعة عقله . ولقد تجلت هذه الخصائص وهذه الطبيعة في كلامه على اعجوبات البصرة قال :

بالبصرة ثلاث اعجوبات ليس في غيرها من البلدان منها ان عدد المد والجزر في جميع الدهر شيء واحد فيقبل عند حاجتهم اليه و يرتد عند استغنائهم عنه ثم لا يبطيء عنها الا بقدر هضمها واستمرائها وجمامها واستراحتها لايقتلها عطشاً ولا غرقاً ولا يغبها ظمأ ولا عطشاً يجيء على حساب معلوم وتدبير منظوم وحدود ثابتة وعادة قائمة يزيدها القمر في امتلائه كما يزيدها في نقصانه فلا يخفى على اهل الغلات يتخلفون ومتى يذهبون و يرجعون بعد ان يعرفوا موضع القمر وكم مضى من الشهر فهي آية واعجوبة ومفخر واحدوثة لا يخافون المحل ولا يخشون الحطمة . والاعجوبة الثانية ادعاء اهل انطاكية واهل حمص وجميع بلاد الفراعنة الطلسمات وهي بدون ما لاهل البصرة وذاك ان لو

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التمست في جميع بيادرها وربطها المعودة وغيرها على نخلها في جميع معاصر دبسها ان تصيب ذبابة واحدة لما وجدتها الا في الفرط ولوان معصرة دون الغيظ اوتمرة منبوذة دون المسناة لما استبقتها من كثرة الذبان .

والاعجوبة الثالثة ان الغربان القواطع في الخريف يجيء منها ما يسود جميع نخل البصرة واشجارها حتى لا يرى غصن واحد الا وقد تأطر بكثرة ما عليه منها ولا كربة غليظة الا وقد كادت ان تندق لكثرة ما ركبها منها ثم لم يوجد في جميع الدهر غراب واحد ساقط الا على نخلة مصرومة ولم يبق منها عذق واحد ومناقير الغربان معاول وتمر الاعذاق في ذلك الابان غير متماسك فلو خلاها الله تعالى ولم يمسكها بلطفه لاكتفى كل عذق منها بنقرة واحدة حتى لم يبق عليها الا اليسير ثم هي في ذلك تنتظر ان تصرم فاذا اتى الصرام على آخرها عذقاً رأيتها سوداء ثم تخللت اصول الكرب فلا تدع حشفة الا استخرجتها فسبحان من قدر لهم ذلك واراهم هذه الاعجوبة . »

من هذا كله يتبين لنا ان الجاحظ في الحنين الى الوطن انما ينظر الى بقعة ارضه نظرة العالم المدقق على ان قلبه لم يخل من نزاع الى وطنه وانما ذهب في هذا النزاع مذهباً بعيداً فجاز من وطنه الاصغر الى وطنه الاكبر فمن بعض كلامه :

« وانا اقول في هذا قولاً وارجو ان يكون مرضياً ولم اقل : أرجو ، لاني اعلم فيه خللاً ولكني اخذت بآداب وجوه اهل دعوتي وملتي ولغتي وجزيرتي وجيرتي وهم العرب » .

اني ارى في هذه الكلمات عروبية واضحة ووطنية صادقة فما اعذب قوله : ملتي ولغتي وجزيرتي وجيرتي ! وما اعذب هذه اليآت كلها ! فانها تدل على ولع صاحبها بقومه وكلفه بوطنه ولهجه بلغته اني ارى فيها صورة الرجل الذي جعل من جزيرة العرب ومن لغتهم ملكاً خاصاً به يرتبط بهما قلبه ولسانه .

ومع هذا كله لم يصور لنا الجاحظ وطنه فاذا اردنا ان نعرف شيئاً من صورة البصرة في القديم لزمنا ان نستعين بغير الجاحظ .

فمن الذين وصفوا البصرة خالد بن صفوان ، وصفها لعبد الملك بن مروان فقال : يغدو قانصنا فيجيء هذا بالشبوط والشيم ويجيء هذا بالظبي والظليم ونحن اكثر الناس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عاجاً وساجاً وخزاً ودِباجاً و برذوناً هملاجاً وخريدة مغناجاً بهوائنا الذهب ونهرنا العجب اوله الرطب واوسطه العنب وآخره القصب فاما الرطب عندنا فمن النخل في مبـاركه كالزيتون عندكم في منابته هذا على افنانه كذاك على اغصانه هذا في زمانه كذاك في ابانه من الراسخات في الوحل المطعمات في المحل الملقحات بالفحل يخرجن اسفاطاً عظاماً واوساطاً ضخاماً وفي رواية يخرجن اسفاطاً واوساطاً كأنما ملئت رياطاً ثم ينفلقن عن قضبان الفضة منظومة باللؤلؤ الابيض ثم تتبدل قضبان الذهب منظومة بالزبرجد الاخضر ثم تصير يافوتاً احمر واصفر ثم تصير عسلاً في شنة من سحاء ليست بقربة ولا إناء حولها المذأب ودونها الحراب لا يقر بها الذباب مرفوعة عن التراب ثم تصير ذهباً في كيسة الرجال يستعان به على العيال ·

واما نهرنا العجب فان الماء يقبل عنقاً فيفيض مندفقاً فيغسل غثها و يبدي مبثهـا يأتينا في اوان عطشنا و يذهب في زمان ريّنا فنأخذ منه حاجتنا ونحن نيام على فرشنا فيقبل الماء وله عباب وازدياد ولا يحجبنا عنه حجاب ولا تغلق دونه الابواب ولا يتنافس فيه من قلة ولا يحبس عنا من علة ·

واما بهوائنا الذهب فان لنا عليهم خرجاً في السنين والشهور نأخذه في اوقاته ويسلمه الله تعالى من آفاته وننفقه في مرضاته » ·

ليت هذا الوصف قد جرى به قلم الجاحظ نفسه واظن اننا لا حاجة بنا من بعده الى معرفة شيء من صورة البصرة وانما يلزمنا ان نعرف ان في البصرة نشأ النصيب الاوفى من عبقرية العرب فكان لهذه البقعة من شعر العرب ولغتهم وادبهم ونحوهم الحظ الاوفر فلا نذكر البصرة الا تمثل لنـا بشار بن برد والسيد الحميري وسلم الخاسر وحسين بن الضحاك وصالح بن القدوس والرقاشي والرياشي وغيرهم من الشعراء على اختلاف طبقاتهم واي تربة افضل من تربة سقى ماؤها وغذى هواؤها وادفأت شمسها رجالاً تبسط سلطانهم في عالم الطبيعة وفي عالم العاطفة فكان للطبيعة وللعاطفة من شعرهم مرآة مصقولة الجوانب مرة تعكس لنا اشكال الالوان على تباين كمدتها وصفائها ومرة تمثل لنا صور العاطفة على اختلاف دقائقها ·

ولا نذكر البصرة الا تخيل لنا الاصمعي وابو زيد الانصاري وخلف الاحمر والخليل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ابن احمد والنضر بن شميل وقطرب وغيرهم من المحافظين على لغة العرب المرامين دون حياضها واذا قلنا : لغة العرب تصورت لنـا هذه المادة التي اعانتهم على الافصاح عن نتائج عاطفتهم وشعورهم وعن ثمرات خواطرهم وعن مذاهب حضارتهم وعمرانهم وعن اساليب سياستهم وسيرتهم فكان في هذه الالفاظ المجموعة في كتاب واحد صورة ناطقة تعرب لنا عن ظواهر العرب وبواطنهم .

وفي البصرة نشأ سيبويه والمازني والى البصرة ينتمي المبرد وابن دريد فمن هذا كله يظهر لكم ان معظم عبقرية العرب في الكوفتين فاذا نبتت على ضفاف بردى عظمة العرب وما اشتملت عليه هذه العظمة من منازع قومية فعلى ضفاف الرافدين دجلة والفرات طلع فكر العرب وشعورهم وللجاحظ نصيب غير يسير من هذا الفكر ومن هذا الشعور .

دمشق : في ٢٠ كانون الاول ١٩٣٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net